

## مقدمة

اطلعت منذ سنين على كتاب فى دار الكتب المصرية اسمه " الكواكب الدرى فى مسائل السلطان الغورى " ، يتضمن آراء السلطان الغورى آخر سلاطين المماليك المصريين فى مسائل من الفقه والتفسير وغيرها عرضت فى مجالسه . والكتاب نسخة مصورة عن نسخة فى استنبول هى نسخة السلطان التى كتبت له فى القاهرة وأهديت إلى خزانة كتبه .

قرأت الكتاب وتقرت سيرة السلطان فى العلم والأدب، فعثرت على آيات له بالعربية والتركية، وألقت محاضرة فى الجمعية الجغرافية موضوعها " مكانة السلطان الغورى فى العلم والأدب " . ثم دأبت على استقراء سيرة هذا السلطان، فأخبرنى بعض العلماء أن الشاهنامه ترجمت نظماً إلى التركية بأمر الغورى، وأن نسخة من هذه الترجمة فى إحدى دور الكتب باستانبول . فكتبت إلى أحد العلماء هنالك فأجبنى أنه لم يجد الكتاب فى المكتبة التى سميتها له . ومرت سنوات قبل أن أعثر فى مكتبه الأمير إبراهيم حلمى - التى أهداها الملك فؤاد رحمة الله إلى مكتبة الجامعة المصرية - على مجلد فيه نصف الكتاب المفقود . شرعت أقرأ الكتاب فرحاً بهذا الظفر، متعرفاً للغة التى نظم بها، متبيناً فرق ما بينها وبين اللهجات التركية الأخرى .

ثم عرفت بعد قليل أن نسخة كاملة من هذه الترجمة فى مكتبة المتحف البريطانى، فعزمت على أن أنقل صورتها إلى مكتبة الجامعة .

ثم سافرت إلى استانبول عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) لأنقب فى مكتباتها عن الشاهنامه التركية، شاهنامه الغورى، وعن كتب أخرى . وانتهى البحث

إلى أن عثرت فى مكتبات السلاطين العثمانين فى سراى طوب قيو على نسخة من الكتاب فى مجلد واحد ضخّم فيه صورة ملونة جميلة .

ويستطيع القارئ أن يقدر اغتباطى ودهشتى إذا علم أن هذه النسخة التى عثرت عليها بعد طول البحث والتحرى هى النسخة الأم من هذا الكتاب - النسخة الأولى التى كتبها المترجم بيده فى القاهرة وقدمها إلى السلطان الغورى .

زاد اطلاعى على مقدمة الكتاب وخاتمته معرفتى بعناية السلطان بالأدب ورعاية أهله ، فزدت إعجاباً بالرجل وإعظماً له . وأطلعت من بعد على كتاب آخر يتضمن طرفاً من آراء السلطان ومحاوراته فى مجالسه اسمه " نفائس المجالس السلطانية " وهو نسخة فى دار الكتب مصورة عن نسخة فى استانبول هى النسخة التى كتبت للسلطان .

وينبغى أن أقول أعترافاً بالفضل لأهله إن الذى أطلعنى على هذا الكتاب وكتاب الكواكب الدرى هو العالم الفاضل الشيخ محمد عبد الرسول ، جزاه الله خيراً .

اجتمع لى كتب ثلاثة ألفت للسلطان ، واجتمع لى الأمهات من هذه الكتب - النسخ الأولى التى كتبت للغورى وقدمت إلى خزانة كتبه . فجعلت هذه الكتب الثلاثة موضوع بحث ألقيته فى مؤتمر المستشرقين ، الذى اجتمع فى بروكسل سنة ١٩٣٨ .

ورأيت أن أطبع " نفائس المجالس السلطانية " كله ثم بدأ لى أن أختار منه ومن الكتاب الآخر " الكوكب الدرى " ما يفى بالمقصود ، وأن أعفى القارئ من كثير من المسائل التافهة المتشابهة التى يتضمنها الكتابان ، فاخترت

من الكتابين مسائل وافية بتصوير مجالس الغورى وتبين آرائه وآراء العلماء  
والكبراء الذين كانوا يغشون مجالسه، لتكون صفحات من تاريخ بلادنا فى  
القرن العاشر الهجرى.

\*\*\*

## مدخل

### السلطان الغورى

- ١ -

مكانه مصر بين الممالك الإسلامية أواخر عصر المماليك، وموقفها فى تباشير العصور الحديثة بين الشرق والغرب، وصلاتها بدول أوروبا والدول الإسلامية؛ خاصة دول بنى عثمان، وقوة أساطيلها فى بحر الروم والبحر الأحمر إلى الهند، واحتلالها بعض سواحل الهند لتأمين التجارة، واصطدامها بأساطيل البرتغاليين فى المحيط الهندى، ثم نظام السلطان فى مصر إذ ذاك، وأحوال مصر العلمية والأدبية والاقتصادية - كل أولئك مجال واسع لبحث عويص مفيد ممتع ذى خطر فى تاريخ مصر والبلاد العربية والإسلامية، وتاريخ العالم كله. وعسى أن يوفق مؤرخونا إلى درس هذه المسائل وبسطها؛ فهى جديرة بالدرس والبسط، وهى من الواجبات الأولى على المؤرخين المصريين.

كان السلطان الغورى يدبر ملكاً واسعاً هو ملك مصر والأقطار التى تتبعها فى أكثر العصور - الملك الذى ذكره أبو الطيب المتنبى وهو يمدح كافورا الأخشيدة:

يدبر الملك من مصر إلى عدن

إلى العراق ، فأرض الروم فالنوب

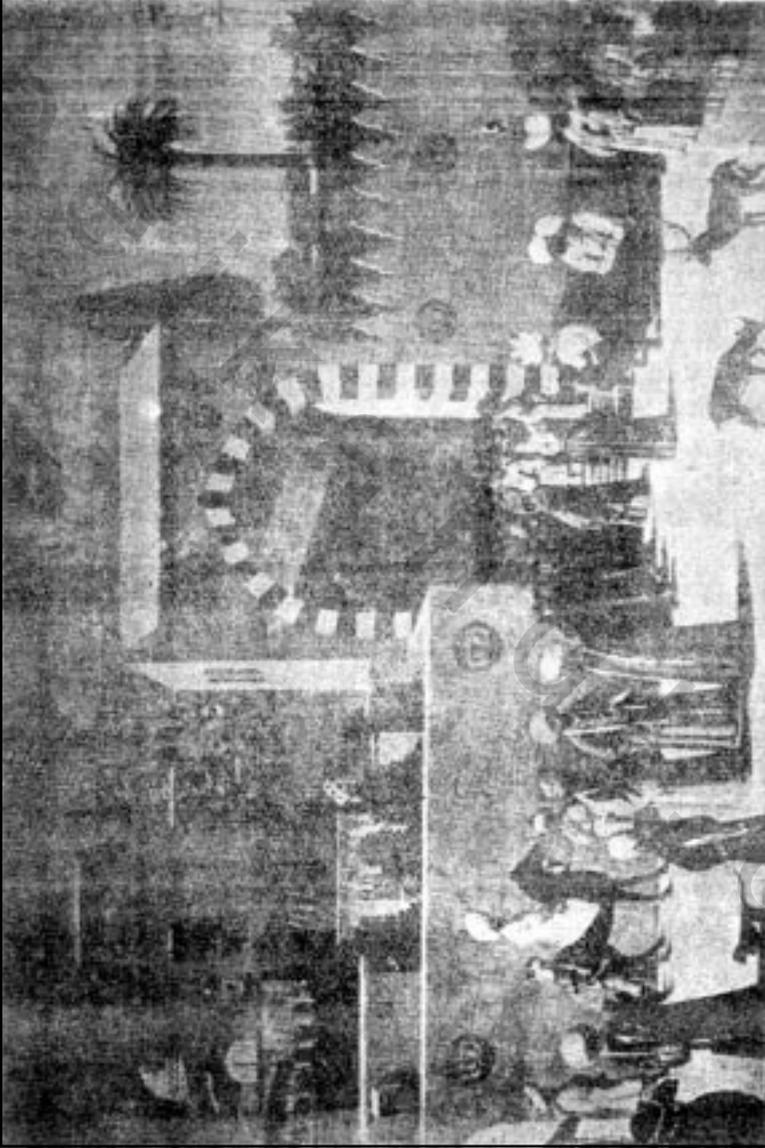
كانت مصر والشام وبلاد العرب، وبعض الجزيرة الفراتية، وبلاد

العواصم، وهى القسم الجنوبي من آسيا الصغرى، فى سلطان ملوك مصر فى معظم العصور الإسلامية. وكانت كذلك أيام الغورى، وكان بنو رمضان الذين تسلطوا فى أذنه وطرسوس وما يليها يولون من قبل سلاطين مصر.

وبلغت الأساطيل المصرية سواحل الهند، وبت عليها قلاعاً لحماية التجارة. وقد اجتهد الغورى زمناً فى الاحتفاظ بسلطان المصريين فى تلك الأرجاء، على رغم البرتغاليين. وكان بعض أمراء الهند يستنجد به على الفرنج فيرسل الأساطيل والجند فى الحين بعد الحين.

وكان للغورى، وللسلاطين المماليك من قبله، الزعامة بين ملوك المسلمين، لتوليهم خدمة الحرمين الشريفين ولما كان الخلافة العباسية فى مصر. ومن يتبع الرسائل التى كانت بين ملوك مصر وغيرهم من الملوك المسلمين، ويتعرف أحوال الأقطار الإسلامية فى تلك العصور يعرف أن ملوك مصر لم يكونوا ينازعون فى هذه الزعامة. وحسب الباحث أن يقرأ الرسائل التى تراسل بها سلاطين آل عثمان ومماليك مصر. وكثير منها محفوظ فى منشآت السلاطين التى جمعها فريدون بك فى القرن الحادى عشر الهجرى.

ولهذا نجد فى تاريخ الغورى كثيراً من أخبار الرسل أو القصاد الذين كانوا يترددون بينه وبين الأقطار الإسلامية، وغير الإسلامية. نجد رسلاً من الهند وإيران والعراق ومن قبل السلاطين العثمانيين، وأمراء آسيا الصغرى، ومن بلاد السودان والحبش، ومن بلاد الكرج وأوروبا وجزر بحر الروم. وكثير من الأمراء المغلوبين على أمرهم كانوا يلجئون إلى مصر ليستنجدوا سلاطينها أو يقيموا فيها آمنين.



صورة تبين السلطان جالساً على باب قصره يستقبل السفراء

يقول ابن إياس فى حوادث ربيع الآخر سنة ٩١٨ :

"ومن العجائب أن فى هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصداً. وكل قاصد من عند ملك على انفراده. فمن ذلك قاصد شاه إسماعيل الصوفى، وقاصد ملك الكرج، وقاصد ابن رمضان أمير التركمان، وقاصد من عن ابن عثمان ملك الروم، وقاصد يوسف ابن الصوفى خليل أمير التركمان، وقاصد صاحب تونس ملك الغرب، وقاصد من مكة، وقاصد الملك محمود، وقاصد ابن درغل أمير التركمان، وقاصد من عند نائب حلب، وقاصد من عند حسين الذى توجه إلى الهند، وقاصد ملك الفرنج الفرنسية، وقاصد البنادقة، وقاصد على دولات، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب".

ولا أريد أن أبين هنا مكانة مصر وعلاقتها مع بلاد الشرق والغرب إذ ذاك؛ فإن من أصعب المباحث التاريخية وأوسعها وأكثرها إمتاعاً أن يُدرس التنافس بين الدول الإسلامية المتجاورة: الدولة المصرية، والدولة العثمانية، والدولة الصفوية، وموقف مصر بين جارتها وبين الدول الأوربية التى تنافسها فى بحر الروم وبحر العرب إلى الهند، وتعرف الأسباب التى مكنت سليمان من أن يهزم إسماعيل الصفوى وقانصوه الغورى، والأسباب التى أخرجت الدول الإسلامية عامة عن منافسة الأوربيين فى مغامراتهم فى بحار الشرق.

إن هذه المباحث وما يتصل بها ليست مما يتسع لتفصيله أو إجماله هذه المقدمة؛ وإنما ألمعت إلى هذه الحوادث لابين مكانة مصر وسلاطينها فى ذلك العصر وبين العبء الذى اضطلع به الغورى فى تدبير أمور مصر الداخلية والخارجية.

وسأذكر فى الأوراق الآتية طرفاً من سيرة السلطان الغورى أجمعه  
إيضاحاً وتكملة لما يستفاد من الكتابين اللذين أقدم لهما هذه المقدمة .

وعمدتى فى هذا تاريخ ابن إياس المؤرخ المعاصر المدقق . وقد حرصت  
على أن أدعه يحدث القارئ بلغته ، كلما أمكن هذا ؛ لأن آراء ابن إياس ولغته  
وأسلوبه صور من تاريخ ذلكم العصر .

### ٣ - كيف تولى الغورى الملك<sup>(١)</sup>؛

قولى أمر مصر فى أواخر القرن التاسع الهجرى سلطان من أعظم  
السلطين المماليك هممة ، وأحسنهم سياسة ، وأكثرهم برّاً ، هو الملك الأشرف  
قايت باى . ملك من سنة ٨٧٢ إلى سنة ٩٠١ ، فاستقرت به الأمور فى مصر  
بعد الاضطراب الذى عقب وفاة الظاهر خوشقدم .

وقد شغل زمناً بمحاربة العثمانيين فى عهد السلطان بايزيد الثانى ابن  
الفتاح وظفر عليهم فى أكثر الوقائع ، ولكنه صالحهم آخر الأمر سنة ٨٩٦  
على أن يرد إليهم مدينتى أذنه وطرسوس .

ولا تزال آثار هذا السلطان الكبير ظاهرة فى مصر والحجاز .

وتلا وفاة قايت باى عهد من الاضطراب تداول فيه أمر مصر وما يتبعها  
خمسة سلاطين : خليفة أبنة محمد ، وخلع بعد ستة أشهر ، ثم عاد إلى الملك

---

(١) بينت فى محاضرة ألقيتها فى الجمعية الجغرافية الملكية منذ سنوات أن الضبط الصحيح  
لهذا الأسم هو الغورى بفتح الغين لأصمها ، وكانت حجتى فى هذا أن الأسم كتب بهذا  
الضبط على مصحف للسلطان فى دار الكتب المصرية . وقد صدق هذا الرأى آيات كثيرة  
فى الشاهنامه التركية جاء فيها الغورى فى القافية مع كلمات مثل دور ، وغور ، وأن  
الأسم ضبط هذا الضبط فى عنوان هذا الكتاب . وفى ابن إياس سجمعه ترجع أنه الغورى  
بضم الفين ولكنها الا تكافئ الأدلة القوية التى ذكرتها (ص ١٢ الآتية) .

بعد خمسة أشهر فملك ثمانية عشر شهراً، ثم قتل سنة ٩٠٤ . وتوالى بعده ثلاثة سلاطين فى ثلاثين شهراً .

فلما اختفى السلطان طومان باى هرباً من الممالىك اجتمع رؤساء الدولة ليختاروا سلطاناً ينتهى بولايته هذا الاضطراب .

وانقل هنا من تاريخ ابن إياس جملة تصور الحال تصوير معاصر خير :  
" وثب العسكر على العادل (طومان باى) فى سلخ شهر رمضان سنة ست وتسعمائة ، واختفى فى ليلة عيد الفطر بعد العشاء . فلما أصبح ذلك اليوم وأشيع هروب العادل ركب الأمير قيت الرحبى أمير سلاح ، وقانصوه الغورى أمير دوادار كبير الخ<sup>(١)</sup> ، ثم ظهر خوشكلدى البيسقى ، وكان مختفياً من العادل لما أراد القبض عليه . فلما تكاملوا اجتمعوا ببيت قانصوه خمسمائة الذى بقناطر السبع ، فحضر إليهم الأتابكى تانى بك الجمالى ، وكان مختفياً من حين كسر الأشرف جانبلاط وتسلطن العادل .

فلما حضر وقع الاتفاق على سلطنته أولاً ، فركب من هناك وعلى رأسه الصنجق<sup>(٢)</sup> السلطانى . وقد ترشح أمره إلى السلطنة . فلما طلع إلى باب السلسلة ليلى السلطنة أشيع فى ذلك اليوم أن الأشرف قانصوه خمسمائة باق على قيد الحياة . فأشهبوا النداء فى القاهرة بأن قانصوه خمسمائة أن كان موجوداً فليظهر وله الأمان . وأن لم يظهر بعد ستة أيام فلا أمان له .

فلما طال المجلس انفض العسكر من الرملة ، ونزل غالب الأمراء الذين كانوا قد اجتمعوا فى الحراقة بباب السلسلة ، وكان يوم عيد الفطر ، فاحتار كل

(١) عد ابن إياس تسعة أمراء آخرين .

(٢) الصنجق العلم .

أحد عودته إلى داره حتى يقع اختيار الأمراء على من يولوه السلطنة. فأعرض غالب العسكر عن الأتابكى تانى بك الجمالى، ولم يرض به أحد منهم. وكان الأتابكى تانى بك الجمالى أرشل معكوس الحركات فى أفعاله. وطاش لما ذكر للسلطنة. ثم آل أمره بعد ذلك إلى كل سوء. فلم تقم له السلطنة، وكانت من نصيب قانصوه الغورى. . . .

فلما رأوا المجلس مانع<sup>(١)</sup> تعصب الأمير قيت الرجيبى أمير سلاح والأمير مصرباى، إلى قانصوه الغورى، وقالوا ما نسلطن إلا هذا. فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع فى ذلك ويبكى، وربما كلمه مصر باى ومزق طوق ملوطته، وهو يمتنع غاية الامتناع. فحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب، وقاضى القضاة بعد الغنى ابن تقي المالكى، والشهاب الشيشينى الحنبلى، وتأخر قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا، وبرهان الدين الكركى الحنفى حتى يقع رأى الأمراء فيمن يولوه السلطنة، فكتب القاضى الحنبلى صورة محضر فى خلع العادل من السلطنة، وشهد فيه جماعى كثيرة من الناس بأنه سفاك للدماء. ثم حضر القاضى الشافعى والقاضى الحنفى وعقدت البيعة لقانصوه الغورى. وبايعه الخليفة. وكانت سلطنته فى يوم الأثنين مستهل شوال سنة ست وتسعمائة.

ثم أحضر إليه شعار السلطنة، وهى الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك. كل هذا وهو يمتنه ويبكى، فلقبوه بالملك الأشرف، وسما فى علوه وأشرف، وكنوه بأبى النصر قانصوه الغورى، وبه صارت مصر مشرقة بالنورى، وقيل:

(١) يعنى: لم يتفق المجلس على أمر.

ألا إنما الأقسام تحرم ساهراً وأخر يأتي رزقه وهو نائم

ثم قدمت له فرص النوبة بالسرج الذهب والكنبوش. فركب من على سلم الحراقة التي بباب السلسلة، فتقدم قيت الرجبي وحمل القبة والطير على رأسه، وقد ترشح أمره إلى الأتابكية. فركب الخليفة عن يمين السلطان، ومشى بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك والباقي للزوال نحو من خمسة وعشرين درجة، وكان الطالع بالسرطان، فأول من قبل له الأرض قيت الرجبي، ثم بقية الأمراء شيئاً فشيئاً، ثم أخلع على الخليفة ونزل إلى داره وأخلع على مصر باى وقرره فى الدوادرية الكبرى والوزارة والأستادارية عوضاً عن نفسه؛ فنزل إلى داره فى موكب حافل. ثم دقت له البشائر بالقلعة، ونودى باسمه فى القاهرة، وارتفعت الأصوات له بالأدعية الفاخرة، وزال ما كان من الشكوك والظنون، وأقرت من الناس بسلطنته العيون، فكانت سلطنته على غير القياس، وأشيع بأن بنيانه على غير أساس، فصار منه بعد ذلك الهزل جد، ومكث فى السلطنة مكثاً جاوز الحد، فزال عنه الأضرار والباس، وامتألت منه أعين الناس، فتولى الملك وله من العمر نحو من ستين سنة ولم يظهر بلحيته الشيب حتى عد ذلك من جملة سعده" (١).

#### ٤ - الغورى قبل السلطنة:

الغورى جركسى من مملوكى السلطان قايت باى، أعتقه وولاه بعض الأعمال فى حاشيته حتى جعل كاشفاً للوجه القبلى سنة ٨٨٦، ثم جعل أمير عشرة السنة التالية، ثم ولى بعض الولايات فى الشام وما يتصل بها من بلاد

(١) ابن أياس حوادث سنة ٩٠٦.

العواصم . وما زال يتقلب فى المناصب ويرتقى أيام محمد بن قايت باى ومن بعده حتى ملك طومان باى وهو بالشام والغورى فى صحبته . فلما رجع إلى القاهرة ولى الغورى ما كان يليه هو من الأعمال : الدوادرية الكبرى والوزارة والأستادارية .

#### ٥ - حليته وأخلاقه وطرف من سيرته:

وكان فيما وصفه ابن اياس : " طويل القامة ، غليظ الجسد ، ذا كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلاً .

وكان ملكاً مهيباً جليلاً مبجلاً فى المواكب ، ملء العيون فى المنظر " (١) .

وكان يميل إلى الآبهة فى ملابسه ومواكبه ، كما كان ميالاً للتنغم ، مولعاً بالفنون الجميلة .

قال ابن إياس :

" وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر .

وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور ، وكان ترفاً فى مأكله ومشربه وملبسه ، ويحب رؤية الأزهار والفواكه .

وكان مولعاً بغرس الأشجار ، وحب الرياضيات ، وسماع الأطيوار المغردة ، ونشق الأزاهر العطرة والبخور .

---

(١) ج ٦ ص ٨٥ حوادث سنة ٩٢٢ .

وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء، وكان يستعمل الأشياء المفرحة، وكان نهماً في الأكل، وكان يغوى طيور المسموع" (١).

هذه صفات تدل على رقة الطبع، ودقة الأحساس، والولوع بالجمال، والاستمتاع بالعيش.

ومن كانت هذه صفاته يبعد أن يكون ظالماً جباراً سفاكاً للدماء، قاسياً على الضعفاء.

ونحن نجد في تاريخ الغورى ما يصدق هذه الخلايا. فأما كلفه بغرس الأشجار والأزهار واقتناء الطيور. وما يتصل بهذا من تشييد الأبنية وتجميلها فسيأتى بيانه.

### حبه الموسيقى والغناء:

وأما ولعة بسماع الموسيقى والغناء ومعرفته بهما؛ فقد اتفق على ذلك المؤرخون وشهدت به سيرته. فهو إذا أراد الاستراحة من عناء الملك خرج إلى مقياس الروضة أو قبة الأمير يشبك، التى فى حدائق القبة الآن، وأحضر خواصه وبعض المغنين والعازفين. وكثيراً ما كان يستصحب المطربين فى أسفاره.

يقول ابن اياس فى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥ :

"وفيه كان موكب العيد حافلاً، وأوكب السلطان على العادة. فلما انقضى يوم العيد نزل السلطان فى اليوم الثانى من العيد، وتوجه إلى قبة الأمير يشبك الدوادر التى بالمطرية، وأقام هناك إلى بعد العصر. ووافق ذلك

---

(٦) حوادث سنة ٩٢٢ ص ٨٦.

اليوم بالمطرية، وأقام هناك إلى بعد العصر. ووافق ذلك اليوم عيد النصرى وأول الخماسين، فانشرح هناك، ومد أسمطة حافلة. وحضر عنده جماعة من المغانى وأرباب الآلات. ورسم لبعض الأمراء العشرات بأن يرقص؛ فقام ورقص بين يدي السلطان فرسم له بمائة دينار".

ويقول فى حوادث المحرم سنة ٩١٨ :

"وفى يوم الأحد وهو يوم عاشوراء، نزل السلطان وتوجه إلى نحو المقياس، وجلس فى القصر الذى أنشأه هناك، وكان معه جماعة من الأمراء، فأقام هناك إلى قريب المغرب وانشرح فى ذلك اليوم إلى الغاية، ومد هناك أسمطة حافلة. وأحضر بين يديه مغانى وأرباب آلات. ثم أن شخصاً مضحكاً يقال له على باى، الذى يعمل عفريناً فى المحمل، قام فرقص. ثم سحب الوالى كرتباى فرقصه، ثم سحب أمير آخور ثانى أقبای الطويل فرقصه. ثم سحب بركات بن موسى المحتسب فرقصه، ثم سحب عبد العظيم الصير فى فرقصه، وكان جسيماً فضحك عليه السلطان. ونشروا بين يديه أشياء من أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى؛ فتخاطف ذلك المماليك. وابتهج فى ذلك اليوم".

وفى حوادث ذى القعدة سنة ٩١٨، يذكر ابن إياس سفر السلطان إلى الفيوم، ويقول فى أثنائه:

"ولما نزل السلطان من القلعة توجه نحو المقياس وبات به ليلة السبت. فلما طلع النهار عدى من هناك وطلع على بر الجيزة وتوجه إلى الوطاق<sup>(١)</sup>

(١) أصل أوتاق بالتركية موقد النار. وتقال على الدار والمخيم.

الذى نصبه عند الأهرام . وقيل إن السلطان أخذ معه جماعة من المغانى وأرباب الآلات . فمنهم محمد بن عوينه العواد ، وجلال السنطيرى والبواقلة ، وأبن الليمونى ، وغير ذلك من المغانى " .

وذكر الشريفى مترجم الشاهنامه عناية السلطان بالموسيقى ، واستصحابه كبار الموسيقيين .

وللسلطان موشحات وألحان كان يغنى بها فى عصره سنذكر بعضها بعد .

#### ألعابه:

وكان يلهاها أحيانا بنطاح الكباش والثيران .

يقول ابن أياس فى حوادث ربيع الآخر سنة ٩١٢ .

" وفى يوم الثلاثاء خامسة ، كان ختام ضرب الكبرة بالميدان . فلما انتهى ذلك احضر السلطان ثيران وكباش يتناطحون قدامه " .

وفى حوادث ربيع الآخر ٩١٨ :

" وفى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه كان ختام ضرب الكرة بالميدان - وكانت جماعة من هؤلاء القصاد حاضرين<sup>(١)</sup> . فلما انتهى ضرب الكرة قام السلطان وطلع إلى الحوش وجلس بالمقعد ، وأحضروا قدامه ثيران يتناطحون وكباش " .

" وفى يوم الأربعاء ثامن رمضان نزل السلطان وتوجه على نحو المطعم

---

(١) يعنى رسل الملوك .

بالريديانية، وجلس على المصطبة التي هناك، وأطلقوا قدامه الكلاب والصقورة والفهود، أنشرح في ذلك اليوم، ثم عاد إلى القلعة من يومه " .

وكان السلطان مواظبًا على لعب الكرة في موسم معروف، وكذلك كانت عادة سلاطين المماليك وكثير من ملوك مصر والدول الإسلامية، نجد في حوادث كل سنة من تاريخ ابن أياس: " وفي يوم كذا بدأ السلطان بضرب الكرة، وفي يوم كذا كان ختم الضرب الكرة " .

### موائده:

وأما احتفاله بالطعام وموائده: فيظهر من وصف مادبه للسفراء ولأعيان مملكته، ومنن مادب أعيان الدولة له .

يقول ابن أياس في حوادث المحرم سنة ٩١٥ :

" ومن الوقائع اللطيفة أن في يوم الخميس ليلة الجمعة خامس عشرة، نزل السلطان إلى الميدان، ونصب به خيمة كبيرة مدورة، وملاّ البحيرة التي أنشأها هناك من ماء النيل، من المجرة التي أنشأه، ثم رسم بجمع كل ورد في القاهرة ووضع في تلك البحرة. وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ. وعلق أحمالاً بها قناديل، وفرش حول البحرة الفرش الفاخرة. وعزم على القضاة الأربعة، وسائر الأمراء من كبير وصغير، وأرباب الوظائف من المباشرين، وأعيان الناس قاطبة. وبات السلطان تلك الليلة بالميدان. وبات عنده الأتابكي قرقماس، وجماعة من الأمراء .

ومد تلك الليلة أسمطة حافلة أعظم من سماط المولد. فمد في السماط أربعمائة صحن صيني. ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية وكل قطعة نصف

رطل . وكان من الأوز والدجاج والغنم ما لا ينحصر . ومن اللحم ألف وخمسمائة رطل ، ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز خمسمائة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسين معلوقًا ، ومن الرمان الرضع أربعين رميساً<sup>(١)</sup> ؛ حتى قيل صرف على ذلك السماط فوق الألف دينار ، بما فيه من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك ، وكانت ليلة مشهودة " .

وكذلك نجد أعيان الدولة يسرفون في الأسمطة التي يحضرها السلطان ؛ فقد أدب القاضي كاتب السر محمود بن أجا للسلطان ورجال الدولة عند مقياس الروضة ، مآذبة انفق فيها سبعمائة دينار<sup>(٢)</sup> .

### مواكبه وزينته:

وكان الغورى يميل إلى الأبهة في زينته وموكبه على شدة حاجته إلى المال .

ووددت أن أمتع القارئ بوصف أحد المواكب بلغة ابن أياس لولا ضيق المجال ، فليرجع من شاء إلى الجزء الخامس ص ٢٧٦ ، ٤٢١ .

ولكنى لا أستطيع إغفال زينة من زينات الغورى ، يرى القارئ في وصفها صورة من معيشة القاهرة في ذلك العصر :

يقول ابن إياس في الحديث عن ذهاب السلطان إلى المقياس وإقامته هناك يومين في جمادى الآخرة سنة ٩١٨ :

"ثم إن السلطان أوقد في قاعة المقياس وقده حافلة ، باطنًا وظاهرًا ،

(١) الرميس : الحمل فى لغة بعض البلاد المصرية .

(٢) ابن إياس : جمادى الآخرة سنة ٩١٨ .

وعلق أحمال بقناديل فى القصر الذى أنشأه هناك، وعلى شرفات المقياس قناديل فى أحمال أو أمشاط حتى أوقد جامع المقياس والمأذنة.

ثم إن سكان بر مصر<sup>(١)</sup> وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والأمشاط بطول البرين، حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه بر الروضة<sup>(٢)</sup>.

ثم أحضر السلطان المركب الكبير الغليون الذى عمره وأصرف عليه نحواً من عشرين ألف دينار، فأرسلوا به قبلاه المقياس، وصنعوا له ثمانى مراسى فى البحر وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشاط؛ فكان الذى وقد فى المقياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة آلاف قنديل. ثم صنع السلطان فى تلك الليلة إحراقه فكان مصروفها نحواً من مائة وسبعين دينار مثل إحراقه نפט المحمل التى كانت تصنع بالرملة قدام القلعة<sup>(٣)</sup>، فشقوا بالنفت من القاهرة وهو مزفوف، وقدامه الطبول والزمور؛ فكان عدة قلاع النفط خمسون قلعة والمواذن ستون مأذنة، وأزيار عشرة، وجرار أربعين جرة، وصواريخ كبار ثلاثمائة، وماويات ألف ومائتين، وشجرات عشرة، وتنانير عشرين، وقطع ألفان، وشعل أربعين. فلما وصلوا بالنفت إلى شاطئ البحر أنزلوه فى خمسين مركب، وصفوا المراكب قبالة المقياس عند البسطة، ورسم السلطان للأمرء المقدمين بأن يحضروا طلبخاناتهم فى مراكب عند المقياس؛ ففعلوا ذلك. فكان حس الطبول والزمور مع الكوسات<sup>(٤)</sup> مثل صوت الرعد

(١) يغنى مصر القديمة.

(٢) يظهر أنه البناء القائم اليوم على مقربة من النيل عند فم الخليج.

(٣) يعلم من هذا أن الزينات والألعاب النارية التى تشغل فى حفلات المولد النبوى اليوم بدعة قديمة.

(٤) الكوسات جمع كوس وهو بالفارسية الطبل الكبير.



باب جامع الغورى فى شارع الغورية

القاصف. فلما صلى السلطان صلاة العشاء جلس على سطح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس والأمراء حوله وأحرقوا قدامه النفط، وكان النيل فى ثلاثة أصابع من عشرين ذراع. وكانت ليلة البدر فدقت كوسات السلطان مع كوسات الأمراء المقدمين، وهم أربعة وعشرون مقدم ألف. فقاموا فى صعيد واحد عند إحراق النفط؛ فكانت تلك الليلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم، ولم يقع لأحد من الملوك قبله مثل هذه الواقعة، ولا للمؤيد شيخ، ولا للناصر فرج بن برقوق".

### عماراته:

وأما كلفه بتشييد الأبنية والتأنيق فيها؛ فتدل عليه آثاره القائمة اليوم، وما حدث التاريخ عن آثاره التى درست.

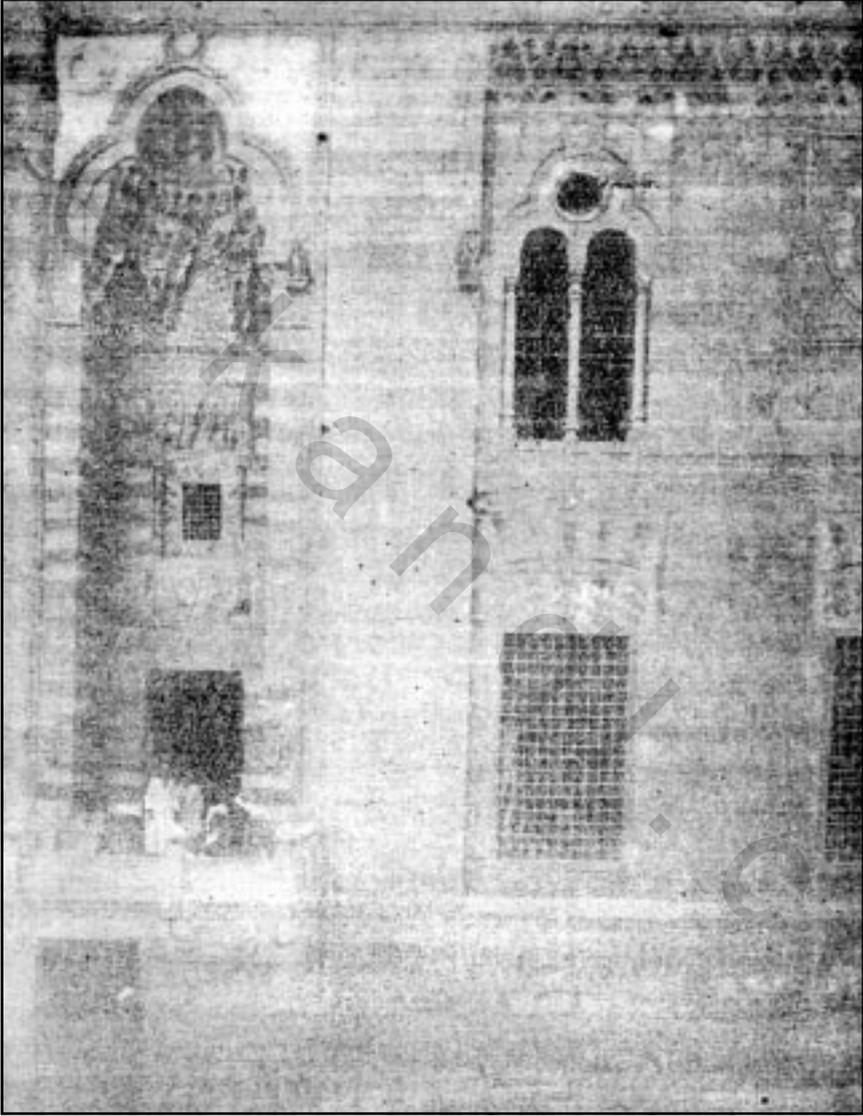
أنشأ الجامع والقبة والمكتب والسبيل التى فى الغورية، وجامعاً عند القلعة، وبنى خان الخليلي، وخاناً وأحواضاً فى طريق الحاج عند العقبة، ورباطاً ومارستاناً فى مكة، وقصرأ عند المقياس فى الروضة، وأنشأ الميدان عند القلعة، وأحواضاً وأبنية فيه.

وعمر قاعة البيسرية وقاعة العواميد والدهيشة فى القلعة، وأنشأ قناطر وأبنية أخرى.

فأما الجامع فلا يزال قائماً بالغورية، ملتقى شارع الغورية (الذى سمي شارع المعز لدين الله)، وشارع الأزهر، وتحت السوق المعروفة باسم التريعة".

ونقل هنا ما يروى ابن اياس فى إتمام هذا الجامع والصلاة فيه أول مرة:

وفى ربيع الآخر (٩٠٩) فى يوم الجمعة مستهلة خطب فى جامع السلطان الذى أنشأه فى الشرايشيين. وقد تم بناؤه وجاء فى غاية الحسن



باب قبة الغورى فى شارع الغورية

والتزخرف. وصنع به مأذنه لها أربعة رءوس. وهو أول من اتخذ ذلك. . . فكان أول من خطب بهذا الجامع قاضى قضاة دمشق الشهاب أحمد بن فرفور الدمشقى الشافعى. فلبس السواد وخطب، وكان المرقى قدامه القاضى عبد القادر القصروى. وحضر فى ذلك اليوم الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة. وهم برهان الدين بن أبى شريف الشافعى، وعبد البر بن الشحنة الحنفى، وبرهان الدين الدميرى المالكى، والشهاب الشيشينى الحنبلى. وحضر غالب الأمراء المقدمين، وولد السلطان المقر الناصرى، وأعيان المباشرين قاطبة، والجمل الخفير من الأمراء العشرات والحاصكية، وأعيان الناس، وزينت الشرابشيين فى ذلك اليوم، وكان يوماً مشهوداً، وأخلع السلطان فى ذلك اليوم على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة، كونه حكم بصحة الخطبة فى هذا الجامع. وأخلع على أينال شاد العمارة خلعة حافلة، وأنعم عليه بإمره عشرة، وأخلع فى ذلك اليوم على عدة من المهندسين والبنائين والمرخمين والنجارين وغير ذلك من أرباب الصنائع ممن كان بالجامع. وأنعم على الفعلاء لكل واحد بألف درهم.

ثم فى الجمعة الثانية رسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر ابن الشحنة بأن يخطب فى هذا الجامع، فخطب تلك الجمعة خطبة بليغة<sup>(١)</sup>.

وفى حوادث جمادى الآخرة سنة ٩١١ يقول ابن أياس: "وفيه مالك مأذنة جامع السلطان الذى أنشأه بالشرابشيين. فلما تشققت وآلت إلى السقوط رسم بهدمها. وقد ثقلت من علوها، كون أنها بأربعة رءوس. فلما هدمت أعيدت على الصحة. وقد بنى علوها بالطوب، وضعوا عليه قاشانى أزرق.

(١) ابن أياس ج: ص ٥٨ ، ط استانبول.

وتجاه جامع الغورى يرى الآن بناء آخر يساميه، ويشابهه فيه قبه الغورى وقاعة كبيرة للدرس، وسبيل وكتاب وحجرات قليلة. وتحت هذه الأبنية مخازن، ووراءها فناء به قبول بجانب الجدار القبلى، ويؤخذ من ابن أياس أن بعض زوجات السلطان وأولاده والسلطان طومان باى بأى الأخير دفنوا هناك.

وفى ابن أياس أخبار كثيرة عن أبنية الغورى. ومما قاله عن المدرسة:

"ووقع للغورى أشياء غريبة لم تقع لغيره من الملوك؛ منها بأنه نقل الآثار الشريف النبوى من مكانه الذى كان به المطل على بحر النيل فجعله فى مدرسته حتى عد ذلك من النوادر.

وقد تعب الصاحب بهاء الدين بن بحناء فى نقل هذه الآثار الشريف، وكان عند جماعة من بنى إبراهيم بالينبع، فلا زال يتطلف بهم حتى اشتراه منهم بستين ألف درهما بالدراهم القديمة، ثم نقله إلى الديار المصرية وبنى له مسجداً مطلاً على بحر النيل<sup>(١)</sup>. وكان الناس يقصدون الزيارة إليه فى كل يوم أربعاء. فلما تلاشى أمر ذلك المكان الذى كان به الآثار الشريف استفتى السلطان العلماء فأفتوه بنقله إلى مدفنه بالقبة وهذا بخلاف شرط الواقف. ثم أن السلطان نقل المصحف العثمانى إلى مدرسته أيضاً<sup>(٢)</sup> وعد ذلك من النوادر. ثم نقل إلى المدرسة أيضاً الربعة العظيمة المكتوبة بالذهب التى كانت بالخانقاه البكتمرية التى بالقرافة. قيل أن مشتراها على الواقف ألف دينار. ولم يكتب نظير هذه الربعة سوى ربعة أخرى بخانقاه سرياقوس اشتراها الملك الناصر محمد بن قلاوون بألف دينار أيضاً، وأخرى بالمدينة الشريفة.

(١) أظنه المسجد المطل على النيل فى الساحل المسمى أثر النبى.

(٢) يذكر هذه المصحف فى كتاب الكوكب الدرى ص ٤٤ وأظنه المصحف المحفوظ فى الجامع الحسينى اليوم.



صورة قديمة تبين الشارع بين جامع الغورى والقببة. رسمها بعض السائحين  
وترى فيها السقيفة التى كانت فوق الشارع

وقد وقع للأشرف قانصوه الغورى فى مدرسته من المحاسن ما لا وقع لأحد قبله من الملوك، وحاز فيها أشياء غريبة عزيزة الوجود.

ولما نقل الآثار الشريف والمصحف العثمانى إلى مدرسة السلطان كان له يوم مشهود ونزل قدامه القضاة الأربع والأتابكى قيت، وجماعة من الأمراء المقدمين والفقراء أرباب الزوايا والأعلام وهم يذكرون. . .

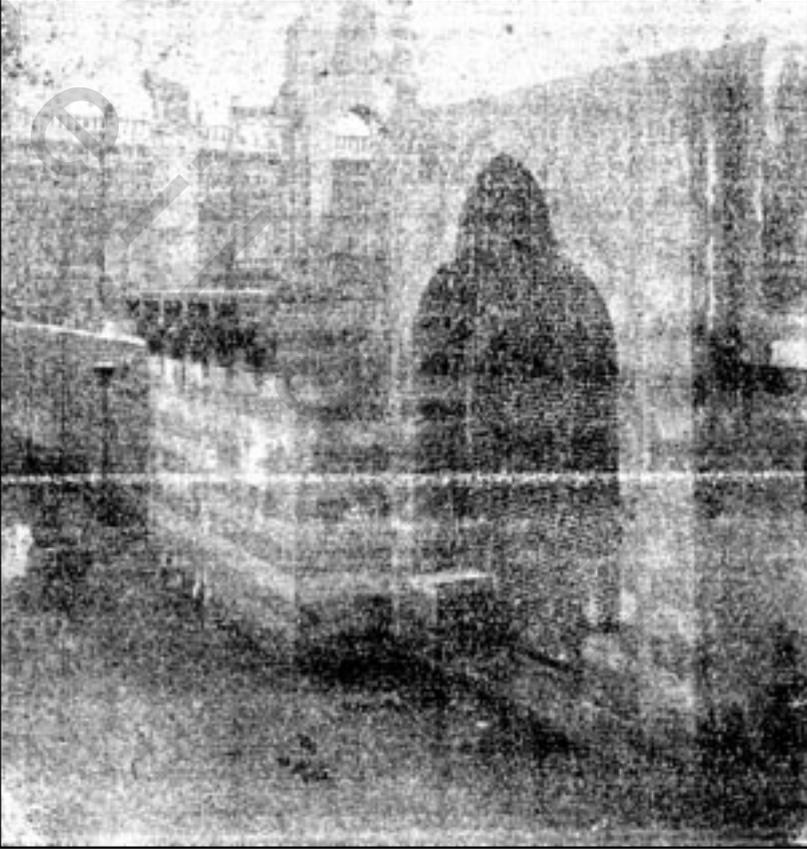
وفى ذلك اليوم أخلع على الشيخ برهان الدين ابن أبى شريف وقرره فى مشيخة هذه المدرسة. وقد صرف عن قضاية القضاة، وأنفرد بمشيخة مدرسة السلطان واستمر بها إلى الآن<sup>(١)</sup>.

ويصف الشريفى الشاعر، الذى ترجم الشاهنامه إلى اللغة التركية بأمر الغورى، عمارات السلطان وصفاً شعرياً يدور على الخيال والمبالغة، ولكنه ينم عن حقائق. فهو يصف القبة ويبين علوها، وأنها لونت باللون الأزرق. ويصف الجامع والسوق التى تحته، ويصف الخانقاه التى بجانب القبة وهى القاعة الكبيرة الجميلة التى إلى يسار الداخل. ويقول فى هذه الخانقاه: " يقرأ فيها العلم الألهى، ويتلى القرآن والأوراد فى الأسحار، ولها شيخان وثمانون صوفياً يقرءون مرتين كل يوم، وبها مائتان من أصحاب الوظائف (يعنى الجرايات) منهم من يعطى الخبز كل يوم ومنهم من يعطى وظيفته مشاهرة<sup>(٢)</sup> .

ويقول فى السبيل الذى يلاصق الخانقاه: " وبجانب الخانقاه سبيل كأ ماء سلسبيل، يشرب الناس منه ليل نهار وفيه خدام لا يغيبون نهاراً ولا ليلاً؛ فإذا غاب أحد السقاة أناب غيره " .

(١) ابن أياس حوادث جمادى الأولى سنة ٩١٠ .

(٢) انظر كذلك كتاب نفائس المجالس ص ٦٠ .



باب من آثار الغورى يرى اليوم فى شارع الصليبية  
متصلا بدار أحمد بك إحسان

ويقول فى المكتب الذى فوق السبيل: "وبنى فوق السبيل مكتباً يقرأ فيه الأيتام إلى العصر، وفيه مؤدب يعلمهم ويريهم".

وكذلك نجد الكلام عن عمارات السلطان فى كتاب النفائس (١).

### ولعه بالحدائق والأزهار:

وأما ولعه بالحدائق والأزهار وإجراء المياه فى الحدائق واتخاذ الحواض والنافورات فيدل عليه ما فعل فى ميدان القلعة.

وهذا الميدان وصفه الشاعر الشريفى، وذكره ابن أياس كثيراً. يقول فى حوادث جمادى الآخرة سنة ٩١٤:

"وفيما كان انتهاء العمل من المجرة التى أنشأها السلطان كما تقدم فدارت هناك الدواليب وجرى الماء فى المجرة حتى وصل إلى الميدان الذى تحت القلعة.

ثم إن السلطان صنع هناك سواقى نقالة، وبنى ثلاثة صهاريج تمتلئ من ماء النيل برسم الممالك الذين يلعبون الرمح فى الميدان، وشرع فى بناء بحرة فى وسط ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان فكان طول تلك البحرة نحواً من أربعين ذراعاً، وقيل أكثر من ذلك. وبنى هناك عدة مقاعد ومناظر مطلات على ذلك البستان".

وفى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥.

"وفى هذه السنة أينعت الأشجار التى غرمها السلطان بالميدان وأخرجت ما شتله بها من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك

---

(١) ص ١٢٦ وما يليها.

من الأزهار الغربية. ولقد عاينت به ورداً أبيض ذكى الرائحة وهو غير أنواع الورد التي بمصر وقد نقل من الشام، وكان يطرح فى أوان الصيف والنيل فى قوة الزيادة، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر.

فكان السلطان يوضع له دكة كبيرة مطمعة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعد مخمل ينطع، ويجلس عليه، وتظله فروع الياسمين، وتقف حوله الممالك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه. ويعلق فى الأشجار أفاص فيها طيور مسموع ما بين هزازات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع. ويطلق بين الأشجار دجاج حبش ويط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة - إلى أن يقول - وقد صار هذا الميدان جنة على الأرض".

### تدينه وبره بالفقراء

كان الغورى ديناً محافظاً على فروض الدين، شديداً على من يفرط فيها، وكان يعد من علماء الدين فى مصر. كما يتبين فيما يأتى.

وكان كلما حزبه أمر أو حلت بالبلاد قارعة أو خشى عليها نازعة فزع إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإلى قراءة القرآن والحديث والدعاء، والبخارى يقرأ فى رمضان ويختلف بختمه فى القلعة، وهى سنة قديمة.

يقول ابن أياس فى حوادث رجب سنة ٩١٥:

وفى رجب نادى السلطان بألا يتجاهر الناس بالمعاصى، ولا يمشى بسلاح بعد المغرب، وأن الناس يواظبوا على الصلوات الخمس فى الجوامع.

وفى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥ أن النيل زاد فى هاتور ثمانية أصابع

فتضرر الناس، " فرسم السلطان للقضاة الأربع بأن يتوجهوا إلى المقياس، ويدعوا إلى الله تعالى في هبوطه. فتوجهوا هناك وباتوا بالمقياس. وقرأ السلطان تلك الليلة ختمة شريفة ومد أسمطة حافلة، فأنهبط في تلك نحو من نصف ذراع. فعد ذلك من الوقائع الغريبة ".

ويصف الشريفي صلاة السلطان وتهجده بالليل ودعاءه، في خاتمة الشاهنامه<sup>(١)</sup>.

وكان برا بالفقراء كثير الصدقات. أنشأ رباطاً ومارستاناً في مكة ورباطاً في مصر، وأجرى فيها الصدقات.

كان يحب أن يتصدق على الفقراء بيده؛ نجد في ابن أياس مثل هذه الحوادث:

المحرم سنة ٩١٢: " وفيه في يوم عاشوراء أمر السلطان بأن تجمع الفقراء والخرافيش عند سلم فاجتمع هناك الجم الغفير من الفقراء والخرافيش ونزل السلطان بنفسه ووقف وهو راكب على فرسه تحت سلم المدرج، وصار يعطى لكل إنسان من الفقراء من رجل وامرأة وكبير وصغير اشرفى ذهب، فوقع الأزدحام بين الفقراء حتى قتل منهم ثلاثة أنفار، من شدة ازدحامهم، فكان كما يقال في المعنى.

فيالك من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل.

وقيل أنه فرق في ذلك اليوم نحواً من ثلاثة آلاف دينار فارتفعت الأصوات له بالدعاء. فلما رأى ازدحام الفقراء لم ينزل مرة أخرى ولم يفرق شيئاً، وكان قصده يفرق على الفقراء مرة أخرى ".

(١) س ١١٦٣ - ٦٤.

فى رمضان سنة ٩١٥: "نزل السلطان إلى الميدان فوقف إليه جماعة من المغاربة نحو من سبعين إنسان ما بين رجال ونساء وقد قصدوا الحج فى هذه السنة، فرسم لهم السلطان بأشرفى لكل واحد منهم ثمن بقسماط".

### وفاءه:

وكان وفياً براً بأصحابه وأولياء نعمته؛ بقى طول عمره يذكر سيده قايتباى بالخير ويعظمه. قال ابن أياس فى حوادث ذى القعدة سنة ٩١٥: "نزل السلطان وسير وتوجه إلى نحو تربه الأشرف قايتباى فنزل عن فرسه ودخل وزار قبره وبكى هناك وتمرغ على قبره، وقرأ له الفاتحة ثم رسم للبوابين وللصوفية بمائة دينار".

ونجد فى كتاب النفائس تعظيمه قايتباى<sup>(١)</sup>.

ونجد فى موضع آخر حزنه على أحد رجال دولته وهو الأشرف قرقماس. يقول ابن أياس فى وصف جنازته (رمضان سنة ٩١٦): " فلما وصل إلى سبيل المؤمن خرج السلطان من الميدان وهو راكب وأتى إلى سبيل المؤمنى، فنزل عن فرسه ودخل للصلاة؛ فلما وضعوا نعشه بين يديه قبله وهو فى النعش وبكى عليه بكاء كثيراً. فلما صلوا عليه حمل نشعه ومشى به خطوات حتى أخذوه منه الأمراء".

### محاسن الغورى كما أجملها ابن أياس:

يقول ابن أياس فى حوادث رمضان سنة ٩٢٢: "فأما ما عدا من محاسنه؛ فإنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب، وليس له بادرة

(١) النفائس ص ١١١.

بحده عند قوة خلقه . ومنها أنه كان له اعتقاد زايد فى الصالحين والفقراء .  
ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم . ومنها أنه كان ماسك  
اللسان عن السب للناس فى شدة غضبه . ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب  
سماع الآلات والغناء ، وله نظم على اللغة التركية . وكان مغرمًا بقراءة  
التواريخ والسير ودواوين الأشعار . وكان قريبًا من الناس يحب المزاج والمجون  
فى مجلسه<sup>(١)</sup> ، غير كثيف الطبع فى ذاته . وكان عنده لين جانب ورياضة  
بخلاف طبع الأتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس " .

### مساوى الغورى:

كان الغورى فى حاجة إلى مال كثير ينفق منه على الجند ليسكن ثوراتهم  
المتكررة ، وليزود الجيوش التى يرسلها إلى أطراف المملكة وإلى الهند ، كما  
يتفق فى بناء الأساطيل . وكانت التجارة قد كسدت بما أخاف الفرنجة سبل  
البحار . وفى صفحات ابن أياس أمثلة من الحوادث التى أكسدت التجارة فى  
عهد الغورى؛ فى حوادث المحرم سنة ٩٢٠ :

"وكان فى تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص فى  
غاية الأنشحات والتعطيل . فإن بندر الإسكندرية خراب ولم تدخل إليه  
البضائع فى السنة الخالية ، وبندر جدة خراب بسبب تعبت الأفرنج على  
التجارة فى بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحوًا من  
سنة سنين . وكذلك جهة دمياط " .

ويقول فى حوادث ذى الحجة من السنة عينها ، أثناء الكلام فى سفر  
السلطان الغورى إلى الإسكندرية يؤمئذ أحد من أعيان التجارة لا من المسلمين

(١) انظر بعض فكاهاته فى الكواكب الدرى ص ٦٦ ، ٧٥ ، ٨٦ .

ولا من الفرنج، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجود القباض؛ فأنهم صاروا يأخذوا من التجار العشر عشرة أمثال فامتنع بحار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر؛ فتلاشى امر المدينة وآل أمرها إلى الخراب حتى قيل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح".

لهذه اشتدت حاجة السلطان إلى المال واشتد حرصه على جمعه وكثرت مصادراته، وأسف فيها إلى درك لا يلائم همته وسيرته.

يقول ابن أياس فى حوادث جمادى الأولى سنة ٩١٦:

"وفى هذه الشهر كثرت مصادرات السلطان للمباشرين، حتى إنه صادر عرب اليسار الذين يسكنون تحت القلعة، وقرر عليهم مال له صورة وقال لهم أنتوا عملتوا كيما تراب تحت القلعة من عفشكم ما يشتالك ولا بعشرة آلاف دينار، وجعل ذلك حجة عليهم".

وفى حوادث رمضان سنة ٩١٨:

"وفيه كان ما وقع لرئيسه المغانى، وهى امرأة يقال لها هيفة اللذيذة. وقد رافعها بعض أعدائها بأن لها دائرة كبيرة من المال، ولها حلة للكبرا. فلما سمع السلطان ذلك قبض عليها وأقامت فى الترسيم، وعرضت للضرب غير مامرة، وقرر عليها خمسة آلاف دينار؛ فباعته الحلى وجميع ما تملكه وأوردت ألف دينار. وقد تكلم لها القاضى بركات بن موسى بأنها لا تملك غير ذلك فقرر عليها بعد ذلك خمسمائة دينار ترد فى كل شهر مائة دينار على كل جامكية<sup>(١)</sup>. وقد طفل السلطان نفسه إلى مصادرة المغانى أيضاً والأمر لله".

(١) الجامكية ما يرتب للجند وغيرها من المال أو الطعام واللباس وأحسبه مأخوذاً من لفظ الجبة بالفارسية.

وكان المال وسيلة إلى المناصب حتى مناصب القضاء أحياناً. فى حوادث ربيع الآخر سنة ٩١٠:

"وفيه أخلع السلطان على شخص يقال له طراباى. وكان طراباى هذا ولى الأتابكية بحلب، ثم حضر إلى مصر وسعى فى نيابة صند بمال له صورة حتى تولاهما".

وفى ذى الحجة سنة ٩٠٦:

وفى يوم الخميس ثامن ذى الحجة عزل قاضى القضاء زين الدين زكريا الشافعى عن القضاء، وهذا كان آخر عزله وولايته، وقد كف بصره عقب ذلك.

فلما عزل زكريا سعى محبى الدين بن عبد القادر بن النقيب فى عوده إلى القضاء. وقد أورد مال له صورة. فأخلع عليه، وأعيد إلى القضاء". وأكثر مساوىء الغورى ترجع إلى كثرة نفقاته وقلة دخله واضطراره إلى أخذ الأموال بكل الوسائل.

وإذا رجعنا إلى ابن آياس نجد جل المساوى التى ذكرها، من هذا القبيل<sup>(١)</sup>. ولولا هذه الضرورات لبرئت سيرة هذا الرجل الهمام مما اقترب من هذه المصادرات.

### مكانة الغورى من معارف عصره:

لم تكن المعارف منتشرة مزدهرة فى مصرى فى عصر الغورى. وإذا نظرنا إلى الأبحاث والمجادلات التى كانت فى مجالس هذا السلطان، عرفنا

---

(١) حوادث رمضان سنة ٩٢٢.

ضيق الأفكار وقلة المعارف، والولع بسفاسف الأمور والقصور عن جلائها.

ولكن ينبغي ألا نعد هذه المجالس مصورة معارف علماء مصر في ذلك العهد، فإن كبار العلماء كانوا يتورعون عن هذه المجالس. فقد عاش بمصر في عصر الغورى علماء كبار مثل جلال الدين السيوطى، والسخاوى، والقسطلانى، وزكريا الأنصارى، ولم تذكر أسماءهم فى هذه المجال؛ بل القضاء الأربعة الذين يذكرون كثيراً فى شئون ذلك العصر، ولهم بالدولة والسلطان صلة مستمرة، قل أن يذكر أحدهم فى مجالس الغورى.

ويتبين من تاريخ الغورى، ومن أقواله التى يتضمنها الكتابان: نفائس المجالس والكوكب الدرى، ومما كتبه الشريفى مترجم الشاهنامه، أن السلطان كان ذا حظ من العلوم الدينية: التوحيد والفقه والتفسير، مشاركاً فى علوم العربية: النحو والبلاغة وغيرها، وأنه كان مولعاً بقراءة كتب التاريخ والسير والقصص، وأنه كان ذا ملكة يتفهم بها الأدب وتزين له أن يشارك فى النظم أحياناً، وأنه كان مولعاً بالموسيقى والغناء، وكان له نظم وألحان يتغنى بها، وأنه كان يعرف لغات عدة.

وعناية السلطان بالعلم والأدب ومشاركته فيهما، وولعة بمطالعة الكتب، مهدت السبيل لمبالغة المادحين، وتخيل الشعراء.

يقول الشريفى فى خاتمة الشاهنامه:

له سوز أكلسة علم ومعرفتدن

سن أنك عارفيسن هرجهتدن

ذلك هر معرفتدن أولدى محظوظ

ضمير كدر صناسن لوح محفوظ

" ما تذكر كلمة من العلم والمعرفة إلا أنت محيط بها. وقد أوتى قلبك حظاً من كل معرفة، كأن ضميرك اللوح المحفوظ ". .

ويقول:

نه فن أولسه سنك أنه ألك وار

له يردن سوز آجلسة مدخلك وار

نجه مشكل كه أورلمز أكا أل

سن إيدرسن أنى إدراكله حل

أكر إنشأ أكر شعر وغز لدر

أكر علم وأكر بحث وجد لدر

كرورز طابك أنه بحر زاخر

سزوكه خلق حيران أول آخر<sup>(١)</sup>

" لك يد فى كل فن، لك مشاركة فى كل موضوع، وكم مشكل لا تناله الأيدى حلته بإدراكك، الإنشاء والشعر والغزل والعلم والبحث والجدل، كل هذه نراها فيك بحراً زاخراً. لقد تحير الخلق فيك ". .

وفى مقدمة الكتابين الآتيين ما يبين عن غلو المؤلفين فى مدح السلطان

بالعلم وسعة المعرفة<sup>(٢)</sup>.

(١) الشاهنامه ص ١٦١ ، ٦٢ .

(٢) انظر كذلك الكواكب الدرى ص ٤٢ .

فأما مشاركته في العلوم الدينية، فدلِيلها في صفحات الكتابين، لا تخلو منه بضع صفحات متتابعة. ولست في حاجة إلى التمثيل هنا؛ فحسب القارئ أن يلقي نظرة على بعض الصفحات. وفي الشاهنامة مدح السلطان بمعرفة الفقه والتفسير وأنه يديم مطالعة التفاسير.

وأما مشاركته في علوم العربية فتدل عليها بعض المجالس، كالمجلس الثامن من كتاب النفائس<sup>(١)</sup>، والسؤال الذي في آخر صفحة ٦٣ من الكواكب الدرِي.

وأما ولوعة بالتاريخ والسير والقصص؛ فقد أخبرنا به ابن أياس<sup>(٢)</sup> وقد أخبرنا به كذلك الشريفى مترجم الشاهنامة، يقول:

تواريخ وحكايا تيله أخبار اقينر صحبتندة جملة تكرر

"تقرأ في صحبتته دوماً التواريخ والحكايات والأخبار".

ويقول في سبب ترجمة الشاهنامة، إن السلطان كان مولعاً بالقراءة وعنده خزانه فيما ضرّوب الكتب. وكان فيها نسخة من كتاب الشاهنامة، فأمره بترجمتها إلى التركية إلخ.

وفي الكتابين اللذين نقدم لهما هذه المقدمة ما يصدق قول ابن أياس والشريفى. ومن أمثلة هذه ما في صفحة ٦٦، ١٣٠ من كتاب النفائس. وفي الكواكب الدرِي أن إسماعيل الصفوى أهدى إلى الغورى كتاب تاريخ التتار<sup>(٣)</sup>.

---

(١) النفائس ص ٢٠.

(٢) حوادث رمضان سنة ٩٢٢، وص ٢٣ السابقة.

(٣) الكواكب، ص ٧٣.

وأما بصرة بالشعر والغناء والموسيقى، وقدرته على المشاركة فيها؛ فقد أخبرنا بهما ابن أياس والشريفى مترجم الشاهنامه، ودل عليهما ما أثر من نظم السلطان وموشحاته.

فأما ابن أياس؛ فقد نقلنا أنفًا قوله، وهو يعدد محاسن الغورى: "ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء، وله نظم على اللغة التركية" (١).

وأما الشريفى، فقد قدمنا قوله فى معرفة السلطان الشعر والإنشاء (٢) ونزيد هنا قوله فى مقدمة الشاهنامه (٣):

نه فن أو لرأسه أند ندر خبير أول  
هرایشده تکرى کسترمش آکایول  
بار شعر ومعمى فتنى خوب

غزل إنشا إدر درکيبى مرغوب  
نبيک مدحنى توحيد بارى

دمش کم کيدر آيشيدن قرارى  
"ما كان من فن فهو خبير به، قد هداه الله فى كل أمر طريقًا. يجيد فن الشعر والمعمى، وله غزل مرغوب كالدر.

وقد قال فى توحيد البارى ومدح النبى ما بلغ به الغاية".

---

(١) ص ٣٣ السابقة.

(٢) ص ٤٠ السابقة.

(٣) الشاهنامه التركية ص ٩.

وفى كتاب النفائس ذكر موشحين من موشحات السلطان<sup>(١)</sup>.

ويبين أيدينا نماذج قليلة من نظمه، وعسى أن يهدى البحث إلى منظومات أخرى، وفيما يلي إجمالى الكلام فيما لدينا من نظمه:

١ - موشح ملمع أثبته صاحب كتاب نفائس المجالس فى آخر الكتاب. وهو عشرة أبيات، أوله:

يا إلهى بن كنه كار؛ أنت غفار الذنوب.

عيبى يوزيمه أورمه؛ أنت ستار العيوب.

قاموا إشارسا كه معلوم؛ أنت علام الغيوب.

بن فقييرية قل عنایت؛ أننى أرجو رضاك.

٢ - وقصيدتان وموشحان بالعربية وموضح تركى أثبتها الشيخ محمد راغب الطباخ فى كتابه تاريخ حلب، من مجموعة من شعر الغورى عند بعض أدباء حلب.

بالملك أنعم ربنا الرحمن وهو الكريم المنعم المنان

فله علينا الشكر حق واجب يقضيه قلب مخلص ولسان

يذكر فى هذه القصيدة أمراء دولته وجنده، ويدعو الله أن يؤلف قلوبهم، ويجمعهم حوله.

والقصيدة الثانية ثلاثة وعشرون بيتاً، وأنشأها فى نصف شعبان، وفيها حث على إحياء ليلة النصف، ودعاء له ولجنده ورعيته. وأولها:

(١) النفائس ص ٦٣ ، ٦٤ .

لله فى أيماننا نَفحات      من دهرنا تزكونها الأوقات  
فيها ألا فتعرضوا وتضرعوا      فيها، تجاب لكم بها الدعوات  
هذى مواسمها لنا قد أقبلت      ودنا بموعدها لنا ميقات  
وأحد الموشحين العربيين من نغم الحسينى، وهو عشر أبيات. وأوله:  
ربنا أدم لنا نَعْمًا      جدت لى بها كرمًا  
فيضها حكى ديمًا      بالغمام منهلة  
والثانى كتب فوقه: "من نغمة المصرية علو محير يهبط على عشاق  
العجم".

وهو اثنا عشر بيتًا أولهما:

جل من لنا وهبًا      ملك مصر وأكتسبا  
حيث سبب السببا      فى قديم علم الله  
والموشح الثانى ملمع بين العربية والتركية، وهو عشرة أبيات أولها:

كز لرم يا شينه رحم أيت يا رحيم

سائلى رد أيت يا رحيم

سائلى رد ايلمز هرکز كريم

رب هب لى من لدنك رحمة

تب علينا أن تواب رحيم

حق جمالن استرز، جنت ندر؟

كورنر جنت بزة انسز جحيم الخ.



صفحة العنوان من كتاب الشاهنامه التركية

وأما معرفة اللغات فالعربية والتركية لا تحتاجان إلى بيان وقد ذكر الشريفي في الشاهنامه معرفته الفارسية. وروى مؤلف النفائس أن السلطان قال في أحد المجالس أنه يعرف كثيراً من الألسن، وعد سبع لغات<sup>(١)</sup>.

### الغورى والشاهنامه:

قدم إلى مصر أحد شعراء التركية فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر، وهو رجل عربى الأصل شريف النسب اسمه حسين بن حسن بن محمد الحسينى الأمدى، ولعله فر إليها، إذ كان من المقرين إلى الأمير جم ابن السلطان الفاتح. وبقي فى مصر حتى توفى سنة ٩٢٠. ولا ندرى متى قدم إلى مصر، ولكننا نعرف أنه اتصل بالسلطان أو سنة من ملكه، فأمره بترجمة إلى التركية، مع أن السلطان يعرف الفارسية.

ولا ريب أن السلطان أراد أن يقرن اسمه بهذا الكتاب الخالد، كما اقترن به اسم السلطان محمود الغزنوى، الذى قدم إليه الأصل الفارسى، وكما اقترن به اسم الملك المعظم الأيوبى الذى أمر بترجمته إلى العربية.

فى مقدمة الكتاب وخاتمة نحو الألف بيت. ويبدأ المؤلف بالتحميد ومدح الرسول والخلفاء، على سنة شعراء الفرس والترك، ثم يكر سيرة ممالك مصر منذ سنة ٩٧٠هـ؛ يذكر قايتباى والملوك الذين خلفوه فى فترة الاضطراب التى بينه وبين الغورى، ثم يفيض فى مدح السلطان، ثم يبين سبب نظم الكتاب، ثم يشرع فى ترجمة الشاهنامه. وفى الخاتمة يمدح السلطان ويبين أنه نظم الكتاب اسمه واتمه فى دولته، ويتكلم عن أخلاق السلطان وسياسته وشغفه بالعلم والأدب، ومعرفته لغات كثيرة، ومشاركته فى

(١) نفائس المجالس ص ١٣٢.

الإنشاء والشعر، ونظمه في توحيد الله ومدح الرسول، وإمامه بالموسيقى، ونظمه موشحاً للغناء، وولعه بقراءة التواريخ إلخ... ثم يصف مجلس السلطان واجتماع العلماء فيه لمذاكرة العلم، ويذكر المغنين والموسيقيين الذين يطربون السلطان في مجالسه.

ثم ينتقل إلى وصف عمارات السلطان وصفاً مفصلاً، فيعدد تسعاً منها. والخلاصة أن في مقدمة الكتاب وخاتمته ما يكشف عن بعض تاريخ الغورى، ولا سيما الجانب الأدبي منه، ويبين طرفاً من تاريخ مصر، بعد حساب المبالغات الشعرية.

### مجالس السلطان الغورى:

يقول الشريفي، ناظم الشاهنامه باللغة التركية، في مقدمة الكتاب:  
شها خوش مجلسك وارد جنب آرا  
أو مجلسده قمونسنه مهيا  
حقيقتده علومك منبعى در  
د كل شك أول أفاضل مجمعى در  
أو مجلسده أولر مشكل لر آسان  
نه مجلس كم أودر باغ وكلستان  
أقينر أنده هر دلجه عبارت  
أولر قانونله رمز وإشارات  
"ما أجمل مجلسك أيها السلطان، إنه يشبه الجنة، كل شئ مهياً فى

هذا المجلس، إنه فى الحقيقة منبع العلوم، ومجمع الأفاضل بلا ريب. مجلس تيسر فيه المشاكل. أى مجلس هذا؟ إنه حديقة وبستان تقال فيها العبارات بكل اللغات. وتسير على قانونه الرموز والإشارات".

كان للسلطان مجالس تجمع العلماء والكبراء، وتطرح فيها للبحث مسائل شتى.

وقد سجلت كثيرا من مسائل هذه المجالس فى كتابين يصوران تصويرا حسنا كثيرا من أحوال مصر فى عهد السلطان الغورى:

١ - كتاب نفائس المجالس السلطانية، فى حقائق الأشرار القرآنية: ألفه حسين بن محمد الحسينى، وهو شريف كما يؤخذ من اسمه ومن عبارات فى ثنايا الكتاب، ويظهر أنه ساح فى إيران والبلاد الشرقية. وهو يعرف التركية فقد نظم بيتين بالتركية فى رثاء ابن السلطان الغورى، وروى من شعر حسين بيقرا<sup>(١)</sup> وفد على مصر فأقام عشرة أشهر شهد فيها مجالس السلطان الغورى، وجمع فى كتابه هذا بعض المباحث التى كان السلطان والعلماء يتكلمون فيها.

والعجمة ظاهرة فى كتابته حتى اسم الكتاب؛ فقد سماه "نفائس مجالس السلطانية فى حقائق أسرار القرآنية"، فحذف اللام من المجالس والأسرار.

والنسخة التى بأيدينا هى النسخة التى كتبت للسلطان وأهديت إليه. وقد جعل المؤلف كتابه فى مقدمة وعشر روضات والمقدمة قصيرة

(١) النفائس ص ٢١، ١٣٤.

تتضمن كلام بعض السلاطين ومنهم الغورى . والروضات العشر يذكر فى كل واحدة منها مجالس السلطان فى شهر . وكانت المجالس تجتمع فى كل أسبوع مرة أو اثنتين أو ثلاثا .

وأولها مجالس رمضان سنة عشر وتسعمائه . وأول مجلس منها يوم الخميس الثالث والعشرين من الشهر ، وآخرها مجالس رجب . فهى عشر روضات فى أحد عشر شهراً ؛ لأن السلطان لم يجلس فى شهر ذى القعدة لوفاة ولده محمد .

والمؤلف يصف كل مجلس وتاريخه ومدته ، ويذكر الإمام الذى يحضر المجلس وكبار الحاضرين ، ثم يذكر المسائل التى طرحت للبحث فى المجلس .

يبدأ السلطان أكثر الأحيان بسؤال يجيب عنه أحد الحاضرين فيرتضى السلطان جوابه أو يناقشه ، وأحياناً يبدأ أحد الحاضرين الكلام . وأكثر المسائل دينية وبعضها تاريخية ومنها ألغاز فى موضوعات شتى ، وقصص عن الملوك وغيرها .

وأحياناً يصف محافل السلطان . يصف ، مثلاً ، إحياء السلطان الولد النبى ، ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعوا ، وما فعلوا فى هذا المحفل ، ويبين كيف جلس السلطان ليلاً وكيف يتقدم إليه كبار الدولة وينشد كل منهم شعراً فى مدحه وكيف يقابلهم السلطان . وقد ذكر أن الخليفة يعقوب المستمسك بالله خليفة مصر تقدم "وباس الأرض كفرض العين وعين الفرض" وأنشده :

إن الخلافة ثوب قد خصصت به

إذا لست فلم يفضل ولم يعز

ما أودع الله في أحد احداقنا بصرا

إلا لنفـرق بين الدر والخرز (١)

وكذلك يمر القارئ بمسائل ذات خطر في التاريخ والسياسة إذ ذاك كقول السلطان: "الجرس من الغساسة فهم عرب" وكالبحث في شروط الإمامة في مجلس السلطان وقول مؤلف الكتاب: فإن لم يوجد من يستوفى الشروط من ولد إسماعيل جاز أن يولى واحد من العجم أو من ولد إسحاق، وقوله بعد هذا: الحمد لله والمنة، والجركس من ولد إسحاق وجميع هذا الشرائط موجودة في السلطان الأعظم (٢).

بل نجد في الكتاب بحثاً صريحاً في نيابة الغورى عن الخليفة العباسى، وهل هذه النيابة لازمة لصحة أحكامه في الأمور الشرعية، ويشد الخلاف بين المؤلف وأحد العلماء في هذه المسألة، فيحقر المؤلف الخليفة ويعظم السلطان، ثم يذهب يستفتى العلماء ويأخذ خطوطهم بأن نيابة السلطان عن الخليفة غير لازمة (٣).

ويرى القارئ أحياناً اهتمام السلطان بتعليم المماليك وإحضارهم من حيث إلى آخر إلى مجلسه، ليقروا أمامه ويمتحنهم (٤).

(١) النفائس، مجالس ربيع الأول.

(٢) النفائس ص ١٠٨

(٣) النفائس ص ١٠٠ فما بعدها.

(٤) النفائس ص ٦٦، ١٣٠.

هكذا يجد القارئ في الكتاب مسائل مهمة لا يظفر بها في كتب التاريخ، ويرى صوراً من آراء السلطان وعلماء عصره، ويتبين مقدار اطلاعهم ومدى تفكيرهم.

٢ - والكتاب الثانى اسمه الكوكب الدرى فى مسائل الغورى، وهو يحتوى على ألفى مسأل وأجوبتها من المسائل التى وقع البحث فيها فى مجالس السلطان الغورى أيضا. ولدينا الجزء الأول من الكتاب وفيه ألف مسألة فى ٣٣٨ صفحة. والنسخة مكتوبة فى عهد الغورى. ويظهر أنها نسخة المؤلف. وعليها خطوط ثلاثة من علماء وقته المعروفين يشهدون بأنهم اطلعوا على الكتاب منهم عبد البر ابن الشحنة قاضى قضاة الحنفية. وبعض هذه الخطوط مؤرخ بالسنة التى تم فيها كتابة هذا الجزء.

ويقول المؤلف فى آخر الكتاب: "وكان الفراغ منه فى مستهل شهر ربيع الآخر سنة تسع عشر وتسعمائة".

وفى مقدمة هذا الكتاب شبه بمقدمة الكتاب الأول، وبعض عباراتهما واحدة، وبين تاريخهما زها عشر سنين.

وفى الكتابين مسائل مشتركة مثل سؤال نكاح الشبهة، والإكراه على سب النبى (١).

وهذا الكتاب ليس مقسما على المجالس كالكتاب السابق، بل المسائل فيه متتابعة بغير فصل. والمطلع على الكتاب يرى صوراً من أفكار علماء مصر وأمرائها فى ذلك العصر؛ يرى إلى المسائل الدينية، وهى معظم الكتاب،

---

(١) الكوكب الدرى ص ٥٢، ٨٣.

مسائل تاريخية، وجغرافية. ويرى انتقال الحديث من تفسير آية أو حديث إلى السؤال عن بنى الأهرام، أو عن زرقعة السماء<sup>(١)</sup>، أو السؤال عن كيومرث أول ملوك الشاهنامة أكان قبل نوح أو بعده<sup>(٢)</sup>، أو عن شهر المحرم لماذا جعل أول التاريخ الهجرى، أو هل الأرض أفضل أم السماء. ويجد القارئ فى الحين بعد الحين فكاهة من السلطان أو نادرة، ويعرض فى المجالس ذكر الملوك المعاصرين والأمراء الذين وفدوا على السلطان كأبناء بايزيد وسليم. ويرى بعض الأسئلة الدينية التى سألها هؤلاء الأمراء وجواب السلطان أو بعض علمائه.

لا ريب أن هذا الكتاب، على تفاهة معظم المسائل التى يدور عليها البحث، يصور بعض النواحي الفكرية والاجتماعية فى مصر والعالم الإسلامى فى ذلك العصر.

\*\*\*

---

(١) الكوكب الدرى ص ٥٤، ٨٨.

(٢) الكوكب الدرى ص ٩٠.



الصفحة الأولى من كتاب نفائس المجالس

بسم الله الملك الأشرف عزير مصر أبو النصر قاضي مصر  
عز الله أنصارك • وضاعف اقتدارك •  
وكتب يابته الشريف من عشرين سنة • وجمعت درر  
قراين في سطر العيار • ونظمت جواهر زواهر في  
حدود كتابه • لأن يابته الكرم مجمع الأفاضل • وجنابه  
العظيم بحر الفيل والفوانيل • هدامع ما خصه  
الله تعالى من الفضائل النفيسة • والمناقب الشريفة  
اللطيفة • أفضاه من الفهم أوفق • ومن الذهن أعز  
ومن الخلق أشرف • ومن العمام الطفة • ومن الرب أقراء  
ومن الملك أعلاء • ومن السجاعة التلعة • ومن الشجاعة  
العظمة • بأهدى الصدق خفة • الله تعالى يجمعها  
ولهذا ارتقى سبته الذوق العالی • التي كانت نهايته  
درجات الأفاضل الأهالی • وفضل هذا اللطائف على  
سلاطين الدنيا • كفضل سلاطين الدنيا على الرعايا  
وكل من الأوصاف والمناف بما قرين به من محبة